

للتواهر الاجتماعية التي يعيشها المبدع والناقد على حد سواء، بل إنه يمارس (النص) التأجيل الدائم، واختلاف الدلالة فهو مثل اللغة (مبني)؛ ولكنه ليس مغلقاً. ولا متمركزاً، بل هو لا نهائي؛ لا يشير إلى فكرة معصومة، بل إلى لعبة غير متناهية؛ وهو لا يجيب على الحقيقة، بل هو يتبدّد إزاءها..

لذلك يصبح من السذاجة أن يقف الناقد السوسولوجية عند الحدود العامة لنظريات علم الاجتماع ويقوم بإسقاط أعمى لهذه النظريات على حركات وسكنات أبطال العمل الأدبي الذي هو بصدد قراءته. ثم يخرج علينا مدعياً امتلاك الحقيقة التي لا حقيقة بعدها، فالنص الأدبي يظل مفتوحاً على كافة الاحتمالات و قابلاً لشتى القراءات وتظل المقاربة السوسولوجية العمل الأدبي إحدى هذه القراءات.

د/نصر الدين بو حساين. قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة البليدة

مساهمة الدرس اللغوي في تنمية النقد الأدبي العربي

مقدمة.

عرف النقد الأدبي بوجه عام قفزة نوعية كبيرة خلال القرن العشرين نتيجة أعمال اللساني السويسري فردينان دي سوسور الذي استطاع بحق أن يخرج الدرس اللغوي من التصورات الفلسفية والأحكام المسبقة التي فرضتها ظروف فكرية سادت أوروبا ردحا من الزمن من خلال اعتماده على جملة من المبادئ غدت هي الموجه الأساسي للدرس اللساني الأوروبي بوجه خاص. الدراسات اللسانية العالمية بوجه عام—وهي السمات التي مازالت تطبع التفكير اللغوي الأوروبي خاصة في وجهه اللساني الخض من جهة والسيميائي ذي التوجه النقدي الأدبي من جهة أخرى—نعم الدراسات اللسانية التداولية التي غدت تطبع محك الدراسات اللغوية فيما يسمى بلسانيات الكلام—لعل أبرزها مفهوم الحاشية الذي يقضي بالضرورة كل نظرة تخرج عن اعتبار اللسان موضوعاً وغاية تستلزم اعتماد منهجية تنقيد هذا المبدأ ولا تخرج عليه البتة. ثم مفهوم النظام

بين مركبتيه ومستوياتها كما تفتن في إبراز ذلك "لويس يامسلاف" في كتابه المعروف بـ "المقدمة للمنظوماتية" -أو مقدمة للغلوسيماتيكـ كما يحلو للبعض تعريبه (2)- حيث أبرز بشكل منطقي مقنع مستويات الدليل اللغوي ثم مستويات المعنى باعتباره محتوى ثم شكلا له محتوى في مستويات عليا حينما يتعدى الأمر مستوى الجملة إلى مستوى العلاقات بين الجمل أو مستوى المعاني الضمنية داخل نفس الجملة.

فكرة استغلها استغلالات ذكيا "رولان بارت" في مبادئ السيميولوجيا حيث اعتنى بمستويات المدلول داخل الدليل بوجه عام ثم علاقة الكل بالمرجع والسياق في دورة التخاطب.

أمر انتبه إليه "دي سوسور" من خلال اعتباره لعلم سماء بالسيميولوجيا يهتم بدراسة الأدلة أو العلامات في دورات التخاطب داخل المجتمعات المختلفة لأنها تشكل هي أيضا أنظمة قائمة بذاتها طالما أعطتها المجتمعات هذه الخاصية الجوهرية التي تسمح لها أن تتبوأ هذه المكانة.

إنّ النظرة الحركية (الديناميكية) للظاهرة اللغوية داخل دورة التخاطب هي التي أعطت هذه المصدقية والجدّة لأفكار "سوسور" حيث مكّنت علماء كـ "شارل باي" أو "إميل بنفنست" من بناء نماذج نظرية -و عملية- تصف وتحلّل الخطاب اللغوي بوجه عام والنص الأدبي بوجه الخصوص لا بوصفه كيانا منعزلا فحسب بل في سيرورة يتفاعل فيها طرفان أساسيان هما المرسل والمستقبل داخل سياق يعطي للنص قيمته اللغوية والأدبية في نفس الوقت. سياق يعطي للخطاب خصوصيات يتنوّع من خلالها ويتلاقح في بنائه وفي مآله.

لقد حاول الوظيفيون دراسة أحوال الخطاب في دورة التخاطب فحصر "بوهلر" وظائف الخطاب وفقا لاستعمالات المرسل وتأويل المرسل إليه بينما انبرى "ياكسون" في حصر تلك الوظائف وفقا للعناصر المكوّنة لدورة التخاطب وهو أمر حجب عن أعين الدارسين الطابع التفاعلي للخطاب اللغوي وخصوصياته الجمالية -رغم اهتمام "ياكسون" طوال حياته بالجوانب الجمالية للغة من خلال اعتماد الوظيفة الشعرية داخل دورة التخاطب من جهة ثم تأليفه كتابا خاصا ببعض أضرب البلاغة متمثلة في كلّ من الاستعارة والكناية -ورغم ذلك فلا يمكن أن ننكر

نماذج نظرية-و عملية-تصف وتحلل الخطاب اللغوي بوجه عام والنص الأدبي بوجه الخصوص لا بوصفه كيانا منعزلا فحسب بل في سيرورة يتفاعل فيها طرفان أساسيان هما المرسل والمستقبل داخل سياق يعطي للنص قيمته اللغوية والأدبية في نفس الوقت. سياق يعطي للخطاب خصوصيات يتنوع من خلالها ويتلاقح في بنائه وفي مآله.

لقد حاول الوظيفيون دراسة أحوال الخطاب في دورة التخاطب فحصر "بوهلر" وظائف الخطاب وفقا لاستعمالات المرسل وتأويل المرسل إليه بينما انبرى "ياكسون" في حصر تلك الوظائف وفقا للعناصر المكونة لدورة التخاطب وهو أمر حجب عن أعين الدارسين الطابع التفاعلي للخطاب اللغوي وخصوصياته الجمالية-رغم اهتمام "ياكسون" طوال حياته بالجوانب الجمالية للغة من خلال اعتماد الوظيفة الشعرية داخل دورة التخاطب من جهة ثم تأليفه كتابا خاصا ببعض أضرب البلاغة متمثلة في كل من الاستعارة والكنية-ورغم ذلك فلا يمكن أن ننكر بأي حال من الأحوال الدور العظيم الذي قام به اللسانيون في مجال النقد الأدبي عند الغربيين حيث خلصوه من الانطباعية من جهة وهيمنة الأفكار الفلسفية المبنية على المنطق الأرسطوطاليسي من جهة أخرى بخاصة فن الخطابة وفن الشعر. يقول عبد الرحمن الحاج صالح في هذا الصدد (3): "إن علم اللسان أو اللسانيات هي التي تمكّن الناقد من الخروج من النقد الانطباعي الذاتي إلى النقد العلمي الموضوعي العلمي كما كانت تمكّن العلماء العرب قديما من تجنب النزعة الانطباعية التي قد يصيب أصحابها الغرض فيها أحيانا لكن بكيفية غير موضوعية وبدون أن يدلوا ببرهان على ما يقولون. فالتحليل العلمي للنصوص خاصة في الغرب تأثر إلى حد بعيد بالطرائق التحليلية التي وضعتها هذه العلوم في زماننا فاعتمدوا على المفاهيم والنظريات التي بنيت عليها هذه الطرائق العلمية. وبدا ذلك في البلدان الغربية بعد الككل الذي احس به الناس إزاء التحاليل التاريخية للأدب إذ تكفي بالبحث عن المؤثرات الخارجية كتأثر المؤلف ببسته وتأثير المدارس بعضها في بعض وتطور كل ذلك عبر الزمان تاركة النظر في التحفة الأدبية في ذاتها وبنيتها وكيفية اختيار المؤلف للوسائل التعبيرية المختلفة التي تتيح له اللغة لتأدية أغراضه. ومن ثم نشأت في بداية القرن العشرين ما

يسمى بنظرية الأدب، وأول من اهتم بهذه الجوانب هم الشكليون الروس وقد عاصروا اللسانيين الروس الذين انطلقت منهم و من "فردينان دي سوسور" فكرة البنية اللغوية وهذا أمر يعرفه جيداً كل من له اطلاع ولو قليل على تطوّر العلوم الإنسانية في البلدان الغربية منذ القرن التاسع عشر". لا يحتاج المرء إلى كبير عناء ليدرك الدور الحاسم الذي لعبته الدراسات اللسانية الحديثة والمعاصرة في تنمية-ولا أقول تطوير-الدّرس النقدي الأدبي عند الأوربيين؛ فما حال الدراسات النقدية العربية؟ وما مدى تأثير البحوث اللغوية فيها؟

لقد عرفت الدراسات البلاغية العربية تطوراً ملفتاً للانتباه بدءاً بآراء ابن قتيبة والعلامة العبقري الجاحظ فوصولاً إلى تحليلات حازم القرطاجني مروراً بآراء أبي هلال العسكري في كتابه "الصّناعتين" ثم الوصف والتنظير في كل من كتابي عبد القاهر الجرجاني "دلائل الإعجاز في علم المعاني" و "مفتاح العلوم" للسكاكي، والملفت للانتباه حقاً عند هذين العالمين الجليلين هو اعتمادهما على الكثير من المفاهيم والمبادئ النحوية واللسانية التي قلّ الثقات الكثير من معاصرنا إليها إلا من انقشعت الرّؤية لديه واتضح المآل كالذي نجده عند الأستاذ أحمد المتوكل الذي يعتبر أن النشاط اللغوي العربي القديم ينقسم إلى لسانيات الجملة ولسانيات الخطاب تمثّلها كل من البلاغة والتفسير وأصول الفقه حيث تواجه هذه المباحث وحدة لغوية أكبر من الجملة رغم تفاوتها في استحضار مقتضيات التواصل أثناء مواجهة الخطاب (4)، ومحمد خطّابي (5) في معالجته لباب الوصل والفصل من الناحية النحوية ودورهما في بناء الانسجام داخل الخطاب اللغوي، ثم عبد الرحمان الحاج صالح (6) الذي حاول من خلال المقال المشار إليه أعلاه أن يبيّن عمق الصلات بين الدّرس اللساني العربي القديم والدراسات البلاغية والنقدية الأدبية حيث يقول في هذا الصّدد: "أمّا فيما يخصّ العلماء العرب قديماً، فإنّهم تفتّحوا إلى أهميّة الدّراسة للأثر الأدبي في ذاته أي من حيث هو خطاب له خصائص ومزايا: بنية خاصّة وطرق تعبيرية خاصّة لتأدية أغراض خاصّة، وحاولوا بهذا الصّدد أن يربطوا بين هذه الدّراسة للخطاب، وبين ما يتيحها النحو لصاحب الخطاب من طرق متنوّعة للتعبير عن المعنى الواحد. فهذا التّوع من الدّراسة الشّاملة هو إبداع الفكر العربي إذ جعل هذا

هو أيضا وقد يكون الألفيش (سعيد بن مسعدة) تلميذ سيبويه وأستاذ المازني هو الذي وضع المصطلح فإنه هو أول نحوي يستعمل كلمة "فائدة" بمعنى العلم المستفاد من الكلام. (12) فالمتفحص لكتاب سيبويه يدرك أن هذا العالم قد أدرك جملة من الحقائق اللغوية العميقة الدقيقة التي اكتشفها أستاذه الخليل بن أحمد الفراهيدي واحتجبت عن أذهان معاصريه ثم من جاء بعده من الشراح المتقدمين والمتأخرين بدليل حصرهم لعلم النحو بمنهجية في مستوى الجمل وعزله عن الخطاب رغم كون سيبويه لم يقصد ذلك بل كانت نظرتة كلية شاملة بعيدة عن كل محدودية يقصر فيها البصر وينحصر فيها مجال البحث العلمي، يمكن أن نجمل الحقائق التي بلغها سيبويه فيما يأتي:

1= ارتباط مفهوم الكلام بالثابتة الفعلية العملية للمتكلمين الفصحاء، أو ما يسميه أهل اللغة بالاستعمال اللغوي. فالكلام هو صنو الاستعمال، فهو بذلك يمثل أصدق تمثيل تداول اللسان بين العرب الأقحاح الذين لا يشك في فصاحتهم، فهم بذلك مصادر المدونة اللغوية التي يتعين أن تتوافر فيها شروط التنوع والشمول والموضوعية والأصالة أيضا.

2= لم يحصر سيبويه المجال المعنوي للكلام في حقل معين بل جعله عامًا يقصد به تارة الجملة، كما يذهب إلى ذلك عبد الرحمن الحاج صالح حينما يقول: "...إلا أن هذا لا يعني طبعاً أن مفهوم الجملة لا يوجد عند سيبويه فهو يسميها عادة "كلاماً" وإذا دللنا قال: "الكلام المستغني" يقول "ما يستغني عنه السكوت وما لا يستغني ألا ترى أن "كان" تعمل عمل "ضرب" ولو قلت: كان عبد الله لم يكن كلاماً. ولو قلت: ضرب عبد الله كان كلاماً. (13) لكنه لا يحصره في ذلك المعنى لأنه يدري = وكيف لا وهو المؤسس والمنظر = أن الكلام أوسع من ذلك حيث لجده يوظف بمعان متنوعة لكنها تبقى دوماً في حدود الحقل المعنوي العام فقد يرد هذا المصطلح وقد أراد به النشر في مقابل الشعر، فيقول على سبيل المثال: "قد يهوز في الشعر وهو ضعيف في الكلام"، وقد يقصد به مدونة العرب كما تم استقراؤه من استعمالهم أو ما يطلق عليه الأصوليون مصطلح السماع حينما يقول تارة: "ولكنه كثر التصب في كلامهم" أو قوله: "و هو قليل في كلام العرب" وقوله "لأنما أجرى هذا على كلام العباد وبه أنزل القرآن" وقوله أيضا: "وربما قالوا في بعض الكلام" أو قوله: "وقد يهوز

في الشعر وفي ضعف من الكلام" إلى غير ذلك كما يعجّ به كتاب سيبويه ممّ يدلّ أنّ قصده هذا العالم من مصطلح الكلام لم يكن محصوراً في الجملة أصلاً بل كان الخطاب بمفهومه العام، حيث إنّ السياق اللّغوي هو الذي يحدّد الحقل الدّلالي بين مفهوم الجملة والخطاب بمعناه المطلق.

3- يترتب عن ذلك بشكل ملفت للانتباه أن المبادئ اللّسانية التي كان يطمح سيبويه إلى تأسيسها كانت تتمثل في لسانيات الكلام لا لسانيات الجملة، لسانيات الخطاب بما يتطلبه ذلك من أدوات منهجية خاصة دلّ عليها التأسيس العلمي الذي اعتمده منذ بداية الكتاب حينما أسّس لمبدأ الاستقامة-الذي يختلف فيه اختلافاً جوهرياً عما ذهب "تشومسكي" فيما يتعلّق بالمقبولية النحوية والمقبولية اللّغوية المعنوية-اللّغوية التي سترافقه طوال الكتاب من بدايته إلى نهايته. تذهب الدّراسات التداولية المعاصرة إلى اعتبار الخطاب داخل السياق إذ يحدّد هذا الأخير ماهيته وأنواعه ثمّ مداه بالنسبة لمنشئ الخطاب الذي يبنيه بناء من جهة ثمّ بالنسبة لمستقبل الذي سيوظف عمليات ذهنية معرفية وإدراكية تقوده إلى تأويل الخطاب وإعادة صياغته بكيفية لم تخطر ببال الواضع المركّب؛ تتدخل في هذا المقام جملة من المركبات الفكرية المعرفية التي ستحدّد وتوجّه السيرورات الذهنية التي سيتخذها المتلقي سمّتا في عملية التحليل والتأويل، كالقياس والتعميم والتجريد والتفاضل والتكامل.

هذه المفاهيم الجوهرية هي التي اتخذها سيبويه طوال بحثه المستفيض فما من قاعدة يستنبطها إلّا واعتمد فيها على آلية من هذه الآليات الذهنية لاعتباره كملاحظ لتكلم/سامع مثالي كما فعل تشومسكي بل كمتلقٍ محلّ ومؤوّل لما هو متداول داخل المدوّنة اللّغوية التي تمثّل الاستعمال الفعلي للغة العربية آنذ أو قبلها.

ب)- مفهوم الكلام:

إذا كان سيبويه يعتبر الكلام هو الخطاب المتداول في أغلب مآذبه إليه في الكتاب فإنّ الذين جاءوا بعده انقسموا بين جامع للمصطلحين في نفس المعنى وبين مميّز بينهما، حيث نجد على سبيل المثال أبا الفتح بن جني يعرف الكلام بأنّه "كلّ لفظ مستقلّ بنفسه مفيد لمعناه، وهو الذي يسمّيه

النحاة الجمل." (14) فهو حسب: "عبارة عن الألفاظ القائمة برؤوسها، المستغنية عن غيرها، وهي التي يسميها أهل هذه الصناعة الجمل على اختلاف تراكيبيها." (15) فالكلام حسبه هو الجمل يختلف أنواعها فلا يختلف فيما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني حيث يقول: "اعلم أن الواحد من الاسم والفعل والحرف يسمى كلمة، فإذا ائتلف منها اثنان فأفادا، نحو "خرج زيد"، سمي كلاما، وسمي جملة." (16) فالكلام وفقا لهذا هو الجملة بشرط التآلف أو الإسناد من جهة وحصول الفائدة من جهة أخرى والمقصود بالفائدة في هذا المقام تمام الخبر الذي يبلغه مرسل الخطاب ومركبه من ناحية فمستقبله الذي يحلله من ناحية أخرى. فالئتلاف أو التركيب والاستقلال وعدم الاحتياج إلى شيء آخر هي أمارات الشرط الأول بينما الفائدة أو الإسناد أو حسن السكوت عليها هي علامات الشرط الثاني. ومهما يكن من أمر فإن الذين جاؤوا بعد سيويه قد سَوَّوا بين الكلام الجملة باعتبار الأول محصوراً في الثاني بل نجد من يذهب أبعد من ذلك كالرضي الاسترابادي حينما يعتبر أن الكلام أخص من الجملة باعتبار الإسناد في الأول أصلي في تركيب مقصود لذاته بينما تتضمن الجملة الإسناد الأصلي سواء أكانت مقصودة لذاتها أم لا؛ فالرضي في هذا المقام يتعامل مع مصطلح الكلام باعتباره وحدة لغوية داخل الجملة أساس بنائها الإسناد الأصلي وهو أمر يحتاج وقفة مطوّلة لا يسع مقامنا هذا مناقشتها بالتفصيل الذي يوفيهما حقها، لذلك فسنتركها لمناسبات علمية أخرى نستطيع من خلال بيان أوجه التأسيس والمقاصد التي أدّت بهذا العالم الجليل إلى هذا الاعتبار. ونجد من النحاة المتأخرين من تعامل مع مصطلح الكلام بوصفه مقابلاً للسان باعتباره نظاماً ذهنياً مجرداً تواضع عليه أفراد مجتمع ما، كما نجده عند ابن يعيش الذي يجعل الكلام جنساً عاماً تندرج تحته الجملة باعتبارها نوعاً من أنواع هذا الجنس الشامل حيث يقول: "إن الكلام عبارة عن الجمل المفيدة وهو جنس لها، فكل واحدة من الجمل الفعلية والاسمية نوع له يصدق إطلاقه عليها كما أن الكلمة جنس للمفردات، فيصح أن يقال: كل "زيد" قائم "كلام، ولا يقال: كل "كلام" "زيد قائم". (17) رغم ما يمكن إبدائه من ملاحظات تخصّ هذا القول في حدّ الكلام وعلاقته بالجملة إلا أن اللآفت للانتباه قرن الكلام بالخطاب باعتباره مجموعة من الجمل وهو أمر يمكن الأخذ والردّ

فيه. ونفس السمت يتخذه ابن مالك في قوله: "كلامنا لفظ مفيد" فسار حذوه شراح ألفيته كابن عقيل الذي يقول شارحا لصدر البيت الأول من الألفية: "الكلام المصطلح عليه عند النحاة: عبارة عن: اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها ، فاللفظ جنس يشمل الكلام، والكلمة، والكلم، ويشمل المهمل كـ"ديز" والمتعمل كـ"عمرو"، ومفيد أخرج المهمل، وفائدة يحسن السكوت عليها، أخرج الكلمة... ولا يتركب الكلام إلا من اسمين؛ نحو "زيد قائم" أو فعل واسم؛ كـ"قام زيد"... وإثما قال المصنف: كلامنا؛ ليعلم أن التعريف إنما هو في اصطلاح النحويين لا في اصطلاح اللغويين، وهو في اللغة: اسم لكل ما يتكلم به مفيدا كان أو غير مفيد" (18) فالكلام هو نوع من الخطاب أساسه الجملة بنوعها ومآله الإفادة التي تعتبر شرطا من شروط حصوله.

يضيف الشارح فكرة نظن أنها مهمة تتمثل في اعتباره لتصنيفين للكلام تصنيف يختص به النحويون والمعنى الذي ناقشناه أعلاه ثم تعريف اللغويين الذي يمكن اعتباره أقرب إلى مفهوم القول عند النحاة وهي ظاهرة ستستوقفنا حينما سنناقش الاستقامة اللغوية بمختلف أوجهها عند سيبويه حينما نجد ذكر نصوصا أقل ما يقال عنها أنها غريبة لا تتوافق وما يفترضه النظام اللغوي في وضعه وفي استعماله.

وعموما فإن مجموع التعريفات التي شملت الكلام كان تدور كلها حول الجمع أو التمييز بينه وبين الجملة من حيث الإسناد والفائدة وهو أمر يحتاج في نظرنا إلى الكثير من الحيلة والحذر والتحرج العلمي لأن سيبويه حسب ما تتبعناه قد قصد بالكلام الخطاب اللغوي كما نتصوره نحن باعتبار ذلك الانسجام الذي يجمع عددا محدودا أو غير محدود من الجمل التي تربط بينها مجموعة من العلاقات المعنوية التي تجعلها تتلاحم في نص متكامل وهو الأمر الذي سنقف عليه في دراستنا لمبدأ الاستقامة. فالكلام حسب سيبويه هو أقرب في ماهيته مما تصوره اللسانيون المحدثون وعلى رأسهم "فردينان دي سوسور" الذي يعتبره التأدية الفعلية المادية للسان باعتباره النظام المجرد المشترك بين أفراد الجماعة التي تستعمله، فنحن في هذا المقام بين ثنائيتين - كما يحلو للبعض تصنيفه والوقوف عليه، وأحيانا المغالاة فيه لأن العبرة لا تنحصر في استنباط الثنائيات التقابلية بقدر ما تعني الوصول

إلى الأصول والحصول على مكنوناتها وزُبدِها-هما الوضع في مقابل الاستعمال عند كلّ من الخليل وسيبويه(الوضع/الاستعمال

واللّسان في مقابل الكلام عند سوسور ومن اقتفى خطاه من اللّسانيين الأوروبيين والأمريكيين، بل يمكن أن نذهب أبعد من ذلك إذا ما قلنا أن سيبويه لم يؤسّس لللسانيات الجملة فحسب بل أسّس لللسانيات الخطاب كما سينجلي من خلال مبدأ الاستقامة اللغوية.

(ج)- مفهوم الاستقامة من الكلام:

يقول أبو بشر عثمان بن قنبر الملقّب بسيبويه في كتابه: "هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة؛ فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب. فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس، وسأيتك غدا. وأما المحال فأن تنقض أوّل كلامك بآخره فتقول: أتيتك غدا، وسأيتك أمس.

وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر، ونحوه.

وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكى زيدا يأتيتك وأشباه هذا. وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس." (19)

لقد أورد سيبويه هذا الباب بعد باب "ما يكون في اللفظ من الأعراض" وقبل الباب المتضمّن "ما يحتمل الشعر" وهو ترتيب لا تطبعه العشوائية قطّ بل يضمّ بين جنباته حسّاً لغوياً عميقاً ومنهجية علمية وحذاً قلماً انتبه إليها الباحثون من الشّراح أو النقاد من المتقدّمين أو المتأخّرين حيث بعضهم بحّد الشّرح دون تعديّه إلى الأسس المعرفية والمقاصد العلمية التي كان يريد سيبويه تحقيقها وستنخذ لذلك مثالين أحدهما عبد الرّحمان الحاج صالح من اللّسانيين المتأخّرين وأبا سعيد السّيرافي شارح الكتاب من اللّسانيين المتقدّمين وسأمزج في الكثير من الأحيان بين شروحيهما دون الاعتداد بالترتيب التاريخي التطوّري- كما يحلو للبعض إطلاق المصطلح الإفرنجي المعرّب بالدياكروني- لأنّهما فهما عميقاً أفكار سيبويه ومن قبله أستاذه الخليل بن أحمد الفراهيدي؛ فتراني تارة أذكر آراء الحاج

صالح لأقفز بعدها إلى أبي سعيد وهكذا طوال مناقشتي للموضوع لما فيه من طرافة وجدة ثم علاقته الوطيدة بالدراسات الأدبية.

يعلق عبد الرحمان الحاج على مذكره سيويه في الكتاب بقوله: "...فسيويه على إثر الخليل هو أول من ميز بين السلامة الرجعة إلى اللفظ (المستقيم الحسن ألقبيح) والسلامة الخاصة بالمعنى: المستقيم/الحال. ثم ميز أيضا بين السلامة التي يقتضيها القياس (أي النظام العام الذي يميز لغة من لغة أخرى) والسلامة التي يفرضها الاستعمال الحقيقي للناطقين (وهذا معنى التحسنان وهو استحسان الناطقين أنفسهم: مستقيم/حسن. فعلى هذا يكون التمييز بهذه الكيفية:

-مستقيم حسن=سليم في القياس والاستعمال.

-مستقيم قبيح=غير لحن ولكنه خارج عن القياس وقليل.

-محال=قد يكون سليما في القياس والاستعمال ولكنه غير سليم من حيث المعنى." (20)

الظاهر من هذا الشرح الذي أراد فيه صاحبه التدليل على أساس نهج للغة من أسس اللسانيات العربية عامة والنظرية الخليلية على وجه الخصوص قد أغفل نوعين آخرين من أنواع الكلام ذكرهما سيويه من قبل وهما المستقيم الكذب من والحال الكذب من جهة أخرى وهو أمر- يثير الحيرة حقاً- لما لهما من صلة وثيقة بالمقام وبالطابع التداولي للخطاب إذا سلمنا بأن سيويه كان يقصد بالكلام الخطاب اللغوي بوجه عام ومختلف الأنماط السياقية التي تطبعه دون إغفال للجانب اللفظي الشكلي منه لأن العبرة في تحليل لا تنحصر في الجوانب الشكلية لأنها محصورة في هذا النطاق إنما العبرة تكمن في اعتماد المعنى والبنية الفكرية المعرفية والمنطقية اللغوية التي تجعله خطابا مقبولا أو غير مقبول.

لقد أحسن أبو سعيد السيرا في بأهمية هذا التقسيم وعلاقته العميقة والأساسية بلسانيات الخطاب لا بلسانيات الجملة بالضرورة رغم تخصيص سيويه معظم أبواب الكتاب للسانيات الجملة، فراح يقف عند كل نوع من أنواع الكلام التي صنفها سيويه بالتدبر والشرح فنجد حينما يشرح النوع الأول من أنواع الكلام يقول: "...وهذا كما قال؛ لأن ظاهره مستقيم اللفظ، والإعراب غير

دالّ على كذب قائله، وكذلك كلّ كلام تكلم به متكلم، فأمكن أن يكون على ما قال، ولم يكن ف لفظه خلل من جهة اللغة والنحو

فهو كلام مستقيم في الظاهر، وقد تبين في مثل هذا أن قائله كاذب فيما قاله، فتحكم على كلامه أنه غير مستقيم من حيث كان كذبا، إلا مستقيم اللفظ. "أي أنه مستقيم في شكله لا في علاقته مع السياق؛ وإنّ هذا لعمري هو لبّ الإحالة المقامية؛ فالمقام هو الذي سيبيّن لك إذا كان المرء صادقا فيما يزعمه أم لا. ثمّ يواصل الشرح قائلا: "غير أنّ الذي استعمله سيبويه في المستقيم، أن يكون مستقيم اللفظ والإعراب فقط، وعنى بالمستقيم اللفظ والإعراب أن يكون جائزا في كلام العرب؛ دون أن يكون مختارا." (21)

فالاستقامة وفقا لهذا المنظور إنما هي تلاؤم والقواعد الشكلية للنظام اللغوي في وضعه وفي استعماله ثمّ تلاؤم وقواعد السياق التي تضبط قبول السامع للخبر صحّة أو كذبا. وإنّ مفهوم الكذب في هذا المقام نسبي لأنّه يرتبط بخبر منقول ومدى ارتباطه بسياق معيّن حيث يمكن للخبر أن يكون صادقا لكن مورده ألبسه مجموعة من الانزياحات جعلته يبدو كذبا في ظاهره، وهو أمر يحيلنا إلى مفهوم مهمّ للغاية في سيميائيات الخطاب اللغوي متمثلة في المعنى الظاهر والمعنى الباطن كما تمثّلها "لويس يامسلاف" في مقدّمة المنظوماتية (22).

أما شرح السيرا في لمضمون الإحالة عند سيبويه فلا يخلو من الطرافة التي تنمّ عن حذق وحصافة قلّ نظيرهما، فنجدّه يقول: "ثمّ قال: "وأما المحال فإن تنقض أوّل كلامك، فتقول: أتيتك غدا، وسأتيك أمس".

فهذا كلام محال. ومعنى المحال أنه أحيل عن وجهه المستقيم، الذي يفهم المعنى إذا تُكلم به. وزعم قوم أن المحال إنّما هو اجتماع المتضادات، كالقيام والقعود، والبياض والسود، وأشبه ذلك؛ قالوا: لأنّ المحال هو ما لا يصحّ وجوده والكلام الفاسد الذي ذكرتموه من قول القائل: "أتيتك غدا"، "وسأتيك أمس" كلام موجود، على ما فيه من الفساد والخلل، والمحال لا يوجد.

والذي نقول في هذا ،وبالله التوفيق:أنّ المحال هو الكلام الذي يوجب اجتماع المتضادات،وقولنا إنّ القعود والقيام اجتماعهما محال،إنما نريد به الكلام الذي يوجب اجتماعهما محال،قد أحيل عن وجهه، ألا ترى أنك تقول لمن تكلم به:قد أحلت في كلامك، فالكلام هو المحال،كما أنّ الكلام هو الكذب."(23) فالعبرة في هذا المقام تكمن في الكلام باعتباره خطاباً له بناؤه وله انسجامه؛انسجام لا يمكن أن يقتصر فيه على المستوى الشكلي متمثلاً في المعاني النحوية والمعاني البلاغية بل يتعداه إلى البنية العامة التي تفترض وجود جملة من الدعائم التي أراد أن ينبّه إليها سيويه لكن الذين تأثروا به اقتصروا في شروحهم وتحليلاتهم على الجوانب الصورية متمثلة في نحو الجملة فطرحوا جانباً كلّ ما يتعلّق بنحو لعلّ مبدأ الاستقامة في الكلام أحسن وأظهر مثال على ذلك.فماذا كان يقصد سيويه بالأنواع الخمسة المذكورة أعلاه ثمّ ما هي تطبيقاتها في المجال الأدبي؟ خلافاً لما يعتقدّه الكثير فإنّ سيويه قد أردف باب الاستقامة في الكلام باب الضرورات الشعرية لا ليميّز بين القواعد في أصل الوضع وأوجه العدول التي لحقتها في الاستعمال الشعري داخل مدوّنة اللّغة العربية التي تمّ جمعها واستقاؤها عن متكلمين فصحاء لا يشكّ في فصاحتهم،أو لتأكيد مبدأ الأصالة والفرعية،بل كان هنالك قصد آخر يتمثل في مقابلته بما هو أعمّ منه متمثلاً في الخطاب اللّغوي بوجه عام باعتباره كلاماً والخصوصيات التي تطبعه بحيث تعطي لكلّ نوع منه سمات مخصوصة،سمات سيطراً عليها الكثير من التحويل والتعديل إذا ما تعلّق الأمر بالشعر،من هنا نستطيع أن نفهم منهجية سيويه التي تمثّلت في الانتقال من العام إلى الخاص،فهذه سمة العالم الفذّ الذي يدري ماهو موضوع دراسته والأهداف التي يريد بلوغها.

أمّا أنواع الخطاب فهي المستقيم الحسن ويقصد به الخطاب العادي الذي يتمّ في دورة التخاطب،القصد من تداوله هو نقل الخبر من المرسل إلى المرسل إليه في أحسن الظروف وبأقلّ قدر من التشويش. وهو مقتضى ما ذهب إليه عبد الرحمان الحاج حيث يعني بالاستقامة التوافق والقوانين الصّابطة لنظام اللّغة في الوضع بينما يعني بالاستعمال التلازم والتوافق ومقتضيات التداول اللّغوي داخل المجتمع وفي حقبة زمنية معينة.

أما الاستقامة والقبح فعتيان أن هناك انزياحا في توظيف قواعد الاتساق اللغوية متمثلة في القواعد النحوية التي تفترض -وفقا لما تم استقراؤه- نسقا معينا كارتباط "قد" بالفعل حيث لا يجوز أن تفصل بينهما بفواصل، وهو ما عبر عليه سيبويه "بالموضع": "بأن تضع اللفظ في غير موضعه". فالأصل أن لا يفصل بين قد وفعلها لكنه محتمل تفترضه قسمة التركيب حيث يمكننا أن نجده في الشعر على سبيل المثال. لذلك أطلق عليه مصطلح القبيح رغم كونه مستقيما حيث لم تكن نظريته معيارية بقدر ما كان تنطلق من واقع لغوي لتعود إليه. فالقبح إذن خروج على قوانين الاستعمال التداولية وموافقة لما تفترضه قوانين الوضع.

إن ما يشدّ حقيقة انتباه الدارس لتحليل سيبويه لأصناف الكلام تصنيفه للمستقيم والكذب حيث يمكن أن نعتبر ذلك من بؤادر الدراسات البلاغية والأسلوبية -ولا نعتقد أننا نحمل الرجل فوق ما يحتمل- أليس الكذب هو مخالفة الحقيقة؟ أليس المجاز هو انزياح عن الواقع؟ ألا يمكن أن نعتبر أن المجاز هو كذب باعتباره خروجاً عن المعلم المعتمد في حلقة التواصل أو ما يعتبره البعض بمعيار التواصل.

ألم يكن أحد شروط جماليات النصوص الأدبية، شعرا ونثرا، هو الانزياح عما مألوف متعارف عليه قد تواطأ على قواعده أفراد المجتمع، وليس أبلغ من الشاعر حينما قال: أعذب الشعر أكذبه؟

حينما يضرب سيبويه المثل القائل: "حملت الجبل" و"شربت ماء البحر" فإنه يقصد المجاز اللغوي بمختلف أنواعه وأصنافه. فإن قال قائل لماذا أدرجه سيبويه في هذا الموضع بالذات؟ فإن الإجابة عنه ستبدو واضحة جلية؛ لأنه كان يدرك بأن التمكن من أضرب المجاز والتفنن في دروبه لا يمكن أن يحصل في ملكة المستعمل إلا إذا تمكّن من الآليات العامة الضابطة للغة بنحو جعلها أولا ونحو خطابها -الذي لم يكتب له أن عمقه، وربما خالط ذهن أستاذه العبقري الخليل بن أحمد الفراهيدي- وهي فكرة عميقة أدركها بعد مرور زمن طويل عبد القاهر الجرجاني حينما اعتبر النظم إنما هو توخّ لمعاني النحو فيما بين الكلم؛ وكيف وقد كان عالما في النحو والفقه والتفسير. فاكتمال

النظرة اللغوية لديه هي التي جعلته يتفطن إلى الدّور النفيسة التي نحوها الكتاب فيستغلّها أحسن استغلال في بناء نظرية النظم.

أما تصوّر سيبويه لمفهوم الخال والخال الكذب فإنه عجيب وعميق في نفس الآن لما نجد من حداثة في الفكر ومواكبة للتيارات الفكرية النقدية الأدبية المعاصرة. ترتبط فكرة الإحالة ارتباطا وثيقا بالمركبة المعنوية داخل الخطاب حيث تفترض عدم التناقض بين المواضيع والمحمولات داخل الخطاب اللغوي حيث يعتبرها "تون فان ديك" (24) من خصائص انسجام الخطاب اللغوي؛ انسجام يحتوي على مجموعة المركبات كعلاقات التضمن والعضوية والتطابق الإحالي ثم تعالق المحمولات، يضاف إلى ذلك ترتيب الخطاب، فحينما يقول المرء: "أتيتك غدا" فإن الترتيب الزمني للواقع غير مرتّب تماما حيث يفترض الزمن المحتوى داخل الفعل أن يليه دليل لغوي (ظرف زمان) يؤكد هذا الزمن والأحداث الطارئة فيه فالتناقض باء في هذا المقام بين عناصر المحمول ذاته بما يجعل الخطاب يبدو مستحيلا، وهو مقتضى قول أبي سعيد السيرافي: "إنّ الخال هو الكلام الذي يوجب اجتماع المتضادات، وقلنا إنّ القعود والقيام اجتماعهما محال، إنّما نريد به الكلام الذي يوجب اجتماعهما محال، قد أحيل عن وجهه. فالإحالة حسب السيرافي تتعلق بالكلام باعتباره خطابا داخل سياق كلامي يعايشه كلّ من المتكلّم والمخاطب. وعليه فإنّ الاستحالة تمسّ الأفعال الكلامية لا الموجودات المادية المحيطة بنا وهو أمر في بالغ الأهمية لأنّه يؤسّس لنائية النصّ من خلال السياق وأفعال التخاطب، نجده يقول في موضع آخر: "ألا ترى أنّك تقول لمن تكلم به: قد أحلت في كلامك، فالكلام هو الخال، كما أنّ الكلام هو الكذب".

يبقى يراودنا سؤال أخير يتعلّق بالأسباب التي دفعت سيبويه إلى تصنيف الخال كنوع من أنواع الخطاب. هل يستطيع أن يستعمل الإنسان خطابا متناقضا محالا في بنائه وفي معناه؟ إنّ الإجابة عن هذا السؤال تعطينا فكرة عن عبقرية هذا الرّجل وأستاذه حيث لا يمكن أن نتصوّر الخال من الكلام إلّا إذا اعتبرناه داخل دورة التخاطب وفي سياقات لغوية خاصة حينما يريد المتكلّم أن يعبر عن استحالة حدوث الموضوع المطلوب منه فعلة حينذاك يمكنه أن يستعمل سلسلة

من الجمل المتناقضة في بنائها النحوي والمعنوي بحيث تبدو مستحيلة البناء. فوظيفة المحال إذن التعبير عن استحالة حدوث الموقف وفيه من المبالغة والتهكم إذا ما اقترن بأي نوع من أنواع المجاز.

الخلاصة:

لقد أتاحت لنا دراسة ما تركه لنا العلامة سيوييه أن نقف على جوانب قلما اهتمّ بها الباحثون-المشتغلين بالنقد الأدبي-حيث وجدنا البعض منهم من يهتم بالتراث البلاغي بدءا بأبي هلال العسكري مروراً بعبد القاهر الجرجاني ووصولاً إلى السكاكي والخطيب القزويني وكذا ابن البناء المراكشي وابن عميرة وابن الزملاكي وغيرهم من علماء اللغة والمنطق والرياضيات ممن اهتموا بفنون البلاغة وقد تناسوا الأصل متمثلاً في الكتاب الذي لا يمكن أن نعتبره كتاباً في النحو بل في اللسانيات العربية بكل ما يحمله مصطلح اللسانيات من معاني عامة وجزئية لأنّ اللسانيات الحالية ليست لسانيات الجملة فقط بل هي أيضاً لسانيات الخطاب في تفاعله داخل دورة التخاطب؛ هي لسانيات وصفية وافتراضية تفسيرية في نفس الوقت. وإنّ مردّ ذلك في نظرنا يكمن في اعتبار اللغة كظاهرة قائمة بذاتها لا يمكن درسها إلا من داخلها اعتماداً على منهجية منبثقة من التفكير اللغوي العربي، إلا أنّ هذا الدرس لا يحجب عن أعيننا جملة وظائف اللغة داخل دورة التخاطب ثمّ علاقتها بالسياق التداولي وهو أمر انتبه له منذ قرون طوال الخليل بن أحمد الفراهيدي وتلميذه سيوييه.

الهوامش:

1-د/عز العرب حكيم بناني؛ الظاهرية وفلسفة اللغة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب

2003

Hjemslev(L) ;Prolégomènes à la glossématique -2

3-د/عبد الرحمن الحاج صالح؛ التحليل العلمي للنصوص، بين علم الأسلوب وعلم الدلالة

والبلاغة العربية، في بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، الجزائر 2007

4-محمد خطّابي؛ لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار

البيضاء، د.ت

- 5- محمد خطّابي، المرجع السابق، ص 97
- 6- د/عبد الرحمان الحاج صالح؛ نفس المقال في نفس المرجع، ص 336
- 7- د/عبد الرحمان الحاج صالح؛ نفس المرجع، ص 337
- 8- عبد القاهر الجرجاني؛ دلائل الإعجاز في علم المعاني، دار المعرفة، بيروت 1978
- 9- عبد القاهر الجرجاني؛ نفس المرجع، ص 241
- 10- عبد القاهر الجرجاني؛ نفس المرجع، ص 254
- 11- د/محمد حماسة عبد اللطيف؛ بناء الجملة العربية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة 2003
- 12- د/عبد الرحمان الحاج صالح؛ الجملة في كتاب سيبويه، في بحوث وحراسات في اللسانيات العربية، مرجع سابق، ص 290/291
- 12- د/عبد الرحمان الحاج صالح؛ نفس المقال ص 291
- 13- ابن جني؛ الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ج 1، ص 17
- 14- ابن جني؛ نفس المرجع، ج 1، ص 32
- 15- عبد القاهر الجرجاني؛ الجمل، ص 40
- 16- عبد القاهر الجرجاني؛ نفس المرجع نفس الصفحة
- 17- د/محمد حماسة عبد اللطيف؛ نفس المرجع السابق، ص 24، 23
- 18- ابن عقيل؛ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة د.ت
- 19- سيبويه، أبو بشر عثمان عمرو بن عثمان بن قنبر؛ الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب الجزء الأول، ص 25
- 20- د/عبد الرحمان الحاج صالح؛ المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي المرجع السابق، ص 218
- 21- أبو سعيد السيرافي، شرح كتاب سيبويه، تحقيق د/رمضان عبد التّوّاب، ج 2، ص 89